

حَاجَتِي فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
بِقَلَمِ الأَرَبِ عِزِّ العَرَبِ عَلِي

بآلة ، أو تغنى بموشح وموال
أو حتى صاح : « يا ليل »
وقد يبدو هذا عجيباً ،
وهو في الحق عجيب في غير
مصر ، فمصر بحمد الله مكتظة
بهذا الصنف من الموسيقيين ،
أو أدياء الموسيقى على الأصح ،
ومذهبهم في هذا أن ليس من

الواجب الختمى أن يلم الموسيقي بأى لون من ألوانها
أو يتعرف ناحية من ثقافتها ، أو أن يفهم حتى
مذهباً من مذاهبها ؛ وبحسبه أن يحشر فيها حشراً ،
فإذا هو بماله وثروته شيخ من شيوخها ، يفقد له
فيها لواء ، ويقام له تمثال ، ويزين صدرها بصورة
الفوتوغرافية والمائية والزيتية ، وهدمت دارها إن لم
تتسع لما ينفخ الشيطان به صدره من ألوان الهديان
وإذن فصاحبنا يعقوب موسيقي ، وموسيقي
من الطراز الأول ، أليس جاهلاً بفنون الموسيقى ؟
ثم أليس هو موفور الجاه موفور الثراء ؟ وما دخل
العلم في حياة الموسيقي وهي أشد ما تكون حاجة
إلى المال ، وأهل العلم في هذا الفن مقاليلك منمورون ؟
ثم أليس المال يبني الدور ويبتاع الآلات الموسيقية
من عود وكان وناي وقانون ودف وطبلة وضمار
وصاجات ، وكذلك كتب الموسيقى . وإذا كانت
الدار مشيدة وفيها آلات الموسيقى على اختلاف
أنواعها ، وفيها أيضاً كتب في الموسيقى للخاصي
وأشباهه من العلماء ، فالذي يمجز الموسيقي أن
تداع ؟ وماذا يقدم بها أن تنتشر ؟
أنا أميل للمذهب صاحبنا يعقوب رضي الموسيقيون

يعقوب الذي تقصد إليه غير نبي الله يعقوب
أبي يوسف عليهما السلام . وإنما هو رجل موسيقي
عاش إلى مستهل القرن العشرين في مصر ، وأخذ
من مناعها ومسارها رفاهية ورغداً
أقبلت عليه الدنيا ، وتوافرت الناعم ؛ وكلما زهد
فيها وتواضع لها ، تراحت عليه بخيراتهما ، وأقضت
مضججه بيركاتهما ... فإذا رغب في سكون النفس
وطمأنينتها نزل عما أفاض الله عليه من خير إلى
المحتاجين والمحرومين والسائلين وذوى المتربة من فقراء
الدنيا ...

ولكن الأيام مجنونة وهي به مشغوفة ؛ فما إن
ينزل عن مصافها حتى تزيد منها وتمره فيها ؛
حتى ألقت نفسه الجشع ، واستولى عليها الحرص ،
وملكها الشح

هنالك هدأت نائرة الأيام أن بلغت بتلك النفس
التواضعة أسباب الجشع ومناحي الصلف وتصعير
الحد ، وألقت به في تيار الحوادث يتقاذفها وتتقاذفه
فتكاد تفرقه

هو رجل موسيقي كما أسلفنا ، وإن لم يشتهر له
دور ، أو يتداول له لحن ، أو يعرف عنه أنه عارف

فزينوا للثورخ نهز الفرصة واقتناصها وصاحبنا يتأبى
ويتصنع العفة ، حتى إذا خضع لسلطان التواضع
نزل على رغبة صحبه وشيمته احتراماً لجمع الكلمة ،
وغلبة الرأي ، ونفخ الثورخ بكرة من المال يستعين بها
على رأب الصدع ونفقات الطبع

استخار الثورخ ربه فأخاره ، واستمانه فأعانه ؛
وشرع يمهّد للتاريخ ببحوث فنية في الموسيقى
آدابها وفلسفتها وتاريخها وتطوراتها حتى قطع في ذلك
شوطاً بعيداً تقع الغلة وشقى الأوار .

ولسكن العلم دائماً ظالم جبار ، يستهوى أهله ،
ويتملك مشاعرهم ويستحوذ عليهم ، ثم يبطن بهم
ويهلكهم ...

وكذلك كان شأن الثورخ ، استهواه البحث
فأشبع منه همته ، وأغفل غير عامد صاحبه يعقوب
إلى حين .

يا غضبة السماء ، يا نعمة الأرض ، ما هذا
الذي يقترفه الثورخ ؟ أيطنى العلم فينسيه شخصية
شيخ الموسيقى ؟ ما العلم ؟ ما البحث ؟ ما الفلسفة ؟
أمام باني البناء ، ورافع اللواء ، ومقيم الحيطان ،
ومشترى الميدان ؟

— الويل لك أيها الثورخ ، كيف لم تستخدم
علمك وتستهبس مواهبك في وصفي والإشادة
بذكري ؟ أعميت عن صورتي ؟

— رفقا أيها الفنان ، سيأتي الوقت الذي
أنصفك فيه ، وأشيد بذكرك في مجاله ، متى فرغت
من حق العلم وتقصيه

— علم ! وهل للعلم حق يتناول إلى عظامتي ؟
وأى علم هذا الذي لم يلهمك مفاخرى ، ويوحى إليك

أم غضبوا ، فلقد ظالت عليهم العصر وما ابتنوا
للموسيقى كوخاً ، ولا شيدوا لها عشا

ليختم العلم الفقير إن أراد الجهل الذي أن يخفيه .
وليخرس العلماء المدققون إن شاء الجهلاء الثورون
أن تقطع ألسنتهم ، فالدينا للمال ، والحياة لأصحاب
المال ، وعند الله أجر العلماء ، وهو أجر لا ينفى فإنه
لا يتجاوز بضع صفحات فيما يسمونه التاريخ

وفي التاريخ صحف مدخولة ، وحوادث مدسوسة
ومفاخر مزورة ، ومآثر صريحة تسجلها الرشا ،
وتدونها اللوام ، وبسطرها البذل الوضيع ، ويجبرها
المطاء السنف ؛ ووسيلة هذا كله ميسورة لصاحبنا
يعقوب ، موفورة له لا ثقله ولا تشق عليه

وأراد صاحبنا أن يطمئن أيضاً إلى هذه الناحية
من التاريخ ، فأسدى إلى أحد المؤرخين يدأ هزيلة
عدها له مكرمة وأثبتها له حسنى

وانقضى يوم وبعض يوم ولما بهضم الثورخ
المنفعة ، وإذا بصاحبنا تحف به شيمة من موهي
الحق ، مزيني الباطل ، كسالى فارغين ، تكني إحدى
الولائم لخراب ذمهم وبيع ضمائرهم

واختل الجميع بالثورخ ، وتناوب الرهط التمثل
ذكر مآثر الموسيقى يعقوب ، فهذا ينوه بأياديه
على الفن ويذكر في هذا قصصاً ، وذلك يمدد تضحياته
في الموسيقى ويرتجل لذلك حوادث ، وهذا يسهب
في مواهبه الموسيقية ويخترع لذلك روايات ، وذلك
يطيل في عبقريته الفنية ، ويصطنع في ذلك خرافات .

وهكذا تناوبوا المفاخر والمآثر ، وصاحبنا يستغفر الله
مخجل النواضع ، وكلما تصنع التمتع عن المدح
والزهد في الثناء زادوا الكيل حتى أصبح حمل بهير
هناك نبتت فكرة تاريخ هذا المبقرى المفرد ،

وبدأ له شهيق أغمرق الشيمة في دموع الكذب والنفاق
ما بك يا سيدنا؟ أنفسنا الفدا إن أجدت
فقال في تيه المكظوم وعبرة المختنق:

صحيت بشبابي وأرقت ماء حياتي ، واستجدت
كرم الناس وسخاءهم للفنون وخدمتها والموسيقى ،
ونهبها ، فكان أن أهمل شأني ، وغمط قدري ،
وأغفلت حتى صورتي . وها أنتم أولاء ترون أنني
وإن لم أبدل في هذا المجهود من مالي درهماً أو ديناراً
رغم ما أفاض الله به علي من الثراء والنعيم ، فإني
توسلت بجاهي للشحاذة واستعنت بحيل الاستجداء
لجمعت للموسيقى ما جمعت ، وهيات لها ما هيات
ثم سحت عيناه وخنفته العبرة فاختمت صوتة ..
يا للهول

هلمت قلوب الشيعة وانخلت أفئدة الزهط ...
أيبيك السيد وما يزال المؤرخ يتنسم روح الحياة ؟
الموت ... الموت ... أهون المقاب موته وتحريق
مخلفاته

وانتهوا في ذلك إلى قرار ما كاد يحف لعابه
حتى كان نافذاً ، هنالك قاموا إلى آثار المؤرخ
فخرقوها وإلى مؤلفاته فزقوها ، وظنوا أنهم بذلك
يطمئنون وتسكن أفئدتهم ويستريحون ، ولكن
عزة العلم تأتي الاستكانة والخضوع ، وكرامته ترفض
الذل والخضوع ، فسجلت تاريخ يعقوب وجملائه
في الموسيقيين مثلاً . ووالله ما تحطى المؤرخ الحق
ولا تمدي الصواب ولا خان أمانة العلم

هذا الخبر على

ما ترى؟ ما تفحنتك المال لتنصر العلم وتؤدى أمانته
وتغفل أمرى وتنسى مكاني؟ خسى العلم وخسى
أهله ...

— أيها الفنان ، حذار عاقبة الطغيان ، فلئن
جنت الدنيا بك اليوم فبسمت لك وترامت عليك
لقد تكشر لك غداً وتقلب عليك ، والأيام قلب
والزمن غدار

— أترى هذا طغياناً أيها المؤرخ؟ شهد الله
ما أسمع منك إلا خرفاً . ما كان هذا طغياناً وإنما
هو وفاء للنفس ولا لوم أن يكون الإنسان لنفسه وفياً ،
ومن الوفاء للنفس أن يؤثرها صاحبها بالمظمة كلها ،
ويختصها بالإجلال أجمه ، فإذا استطاع أن ينصب
لها في كل حي تمثالاً ويقم لها في كل منفذ نصيباً ،
وقصر في ذلك كان قصوره ككفرًا وجريمته نكراً
والمعجب العاجب أنك تجهل هذا وتدعى العلم ؛
وأعجب منه أن يتحرك لسانك بين شديك ، ثم
يرمى بالطغيان ، يا خجلة الحياء ، يا ضيمة الأدب
— أيها اليفس ! إن لم يكن هذا الذي تقترف
طغياناً وعنتاً ، فما هو الطغيان والعنت إذن ؟ لقد
جاوزت المدى ، وأمرقت في ...

— يمينا لأطمئن مقولك ، وأخرسن لسانك ،
وأحطمن قلبك . فما ترفع بعد اليوم صوتك ، ولا
تخط حرفاً .

هنالك ملك الغضب صاحبنا يعقوب فخار خوارا
زعزع جوانب السكان ، وفزعت الشيعة . فجاءوا
يهرعون إليه ، ينهون من غربه ، ويطفئون نار
غضبه ، حتى إذا سكن هاجبه ، وهدأ فآره ، تباكي